اسم الدرس : تفسير سورة العنكبوت (2) | الآيات (6 : 10)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ مقدمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، نستكمل بإذن الله سبحانه وتعالى وقفات مع سورة العنكبوت.

كنا توقفنا عند قول الله سبحانه وتعالى {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} لم نأخذ هذه الآية، أخذنا الآية الخامسة {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

في المرة الماضية تكلمنا عن مَوْضع سورة العنكبوت في المصحف، وأنها تبدأ بالحروف المقطعة، ومجموعة السور التي تبدأ بنفس الحروف المقطعة {الم} -ولا سيما التي نزلت في مكة-، وتكلمنا عمن حاول أن يشير إلى موضوع سورة العنكبوت، وحاولنا أن نتناول بشيء من الوقفات التحليلية إلى حدٍ ما الآيات الخمس الأُوَل، وتكلمنا عن الخلاف في الآيات الأولى -أول عشر آيات-: هل هنَّ مكية أم مدنية؟ ثم تطرقنا لمصطلح النفاق وأنه نزل أو ظهر بوضوح في المدينة فهل الآيات التي جاء فيها -وسنتكلم عنها اليوم بإذن الله سبحانه وتعالى- هي مكية أم مدنية؟

مقدمة السورة ممكن نقول أنها من آية ١ إلى آية ٧ تقريبًا، هذه مُقَدِّمات، -بعضهم يقول في اللغة "مُقدَّمَة" لكن أيًا كان-، هي مقدمات مهمة لفهم وكيفية التعامل مع الفتن التي سيواجهها الإنسان؛ فمن آية ١ إلى آية ٧ تقريبًا {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} إلى هنا هذه **مقدمة بدأت بها السورة تضع قواعدًا وسُنَنًا لابد أن يفقهها الإنسان في سيره في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.**

فإذا أيقن بهذه الأمور وفهم هذه السنن وأن الأمر حتمي وأن الأمر مهما حاول الإنسان لن يَخرج عن سنة الله سبحانه تعالى {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا}[الأحزاب: 62 ، الفتح: 23]، {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا}[فاطر: 43]، يبدأ يُهيء نفسَه للتعامل مع الابتلاءات.

❖ الفتن التي تواجهك في الطريق:

وبدأ من أول {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ} بدأت الابتلاءات تُذكَر، والفتن التي ممكن يقابلها الإنسان في السير في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن ربنا قال في أول السورة {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} فبدأت السورة تَذكر أُنَاسًا قالوا آمنا ثم تعرضوا للفتن، ومنهم من نجا ومنهم من فُتِن.

فالآية بدأت بعد {الم} {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} فبدأت الآيات –بعد المقدمات بعد السبع آيات الأُوَل– بدأت الآيات تتكلم عن أُناس قالوا آمنا ثم تعرضوا لابتلاءات وفتن فمنهم من نجح ومنهم من فاز ومنهم من نجا لفهمه لهذه القضايا ولإيمانه ولتشبثه بدينه، ومنهم من سقط في الفتنة، وسنذكر الآن كيف تعامل القرآن أيضًا مع الذين وقعوا في الفتنة.

حسنًا، كنا توقفنا عند آية ٥ {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} آخر أمر تحدثنا عنه أن من القضايا التي لابد للإنسان أن يتعلمها في السير في الطريق إلى الله أن **أكثر شيء ينتظره ليس مُجرد التمكين أو النصر في الدنيا هذا قد لا يراه الإنسان لكن الإنسان يبذل قُصارى جُهده لهذه اللحظة التي يتمناها كل مؤمن.. لحظة رؤية وجه الله سبحانه وتعالى، أن يلقى ثواب الله سبحانه وتعالى، أن يأخذ كتابه بيمينه، أن يلقى النبي صلى الله عليه وسلم على الحوض.**

هذه هي القضايا التي تشغل بال الإنسان فإذا مات الإنسان، مات المؤمن في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى في سيره إلى الله ولم يرَ النصر في الدنيا هو يُصَبِّر نفسه بمثل هذه الأمور، هو ينتظر هذه اللحظة أن يلقى الله سبحانه وتعالى وهو مليء بالأذى الذي تلقاه في الدنيا وبالدماء وبالبذل وبالتضحية، فيسأله الله سبحانه وتعالى: عبدي لِمَ فُعل فيك هذا؟

لأن كل الناس تتعرض لمعاناة {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[البلد: 4] كل الناس تتعرض لكبد في الطريق في الحياة، ولكن منهم من يُكابد ويُعاني لأجل الله سبحانه وتعالى؛ قال ربنا سبحانه وتعالى {إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ}[النساء: 104] لو أنتم تشعرون بآلام في الطريق إلى الله، هناك أيضًا أُناس يشعرون بآلام ولكن في الطريق مع الشيطان.

{إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ} **أي** فإن أهل الباطل {يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} تخيل! نفس الألم الذي تمر أنت به، وكاف التشبيه هنا أي نفس الآلام، أنت تتألم بدَنيًا وهو يتألم بدَنيًا، أنت تتألم نفسيًا وهو يتألم نفسيًا، أنت تبذل وتسهر وتقتطع من نومك، وتدخر وتنفق من مالك، وهناك من أهل الباطل من يفعل كذلك، هناك منهم من ينفق من ماله للصد عن سبيل الله، هناك من يسهر لياليًا يفكر كيف يَصدُّ الناس عن دين الله سبحانه وتعالى، أنت ممكن تسهر لياليًا تفكر كيف تدعو الناس إلى الله سبحانه وتعالى وتتألم ويعتصر قلبك، هو أيضًا يتألم لدخول الناس في دين الله أفواجًا {إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} **الفارق**: {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ}[النساء: 104]!

فإذًا الإنسان يُصبِّر نفسه بهذه الآية {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} الإنسان يطمئن، مهما كان هناك مُتَغيرات في السَيْر في الحياة، المسلمين انتصروا، المسلمين هُزموا، حدث استضعاف، حدث تمكين، سُقوط قدوات، الإنسان أصبح وحده في الطريق إلى الله...، أيًّا كانت المتغيرات هناك ثابت لا يتغير {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} هذا ثابت لا يتغير جاء بصيغة التأكيد.

فمن عَبَدَ الله سبحانه وتعالى منتظرًا لهذه اللحظة كان ثابتًا لأن الأمل الذي يَحْدوه ثابت لا يتغير {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} وهو السميع لأقوالك، وهو العليم بأحوالك.

ثم قال ربنا سبحانه وتعالى للذي يستعظم بَذلَه، قد يستعظم البعض المجهود الذي يُقدِمه للدين، يقول هذا كثير، وظلَّوا –الصحابة– ثلاثة عشر سنة في مكة يتعرضون للتعذيب، لماذا ثلاثة عشر سنة؟ والصحابة أُوذُوا كثيرًا، وعندما تقرأ قصص التعذيب الذي مرَّ بالصحابة في مكة، الإنسان قد يستعظم ذلك، لذلك من أوائل ما أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[المدثر: 6-7] من أوائل ما أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم: **لا تنظر إلى ما تُقدِم للدين**، سوف تقدِم كثيرًا وهذا لا يساوي شيئًا في جنب الله سبحانه وتعالى، ثانيًا **وَطِّن نفسك على الصبر** {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}.

فقال ربنا سبحانه وتعالى هنا في هذه الآيات {وَمَن جَاهَدَ} الذي يبذل الجَهْد: التعب، **الجهد**: المشقة والتعب، وأن الإنسان يفعل الشيء لكن بنوعٍ من ضغط النفس، لأن الإنسان حين يعمل شيئًا نقول "يفعل"، لكن فعل شيئًا بمشقة وبتكلف نقول "جَاهَد".

{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} العلماء هنا يقولون لفظ "جاهد" الذي هو بصيغة "فاعَلَ" هذه تأتي غالبًا عندما يكون هناك اثنان مشتركان في الفعل، فنقول مثلًا صارَعَ فلانٌ فلاناً، هنا اثنين، صيغة فاعَلَ.. اثنين يشتركان في الفعل، لذلك لما قال ربنا –في آخر سورة آل عمران–: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} اصبروا أي أنتم اصبروا، **فما معنى صابروا؟**

معناها أن المشركين يصبرون وأنتم تصبرون أيضًا فالفائز هو الذي يكون صبره أكثر من الآخر، فصابروا **أي كونوا أكثر صبرًا من المشركين**، إذًا نحن الاثنين نشترك في فعلٍ ما.

قالوا: حسنًا، وماذا عن جَاهَد؟، فلو الآية مدنية، يكون المقصود بكلمة "جاهد" صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الذين قاتلوا في بدر أمام المشركين فيوجد فعلًا فريق من المؤمنين وفريق من المشركين، عندها نسميه "جاهد"، والمعنى ينطبق عليه.

لكن لو الآية نزلت في مكة –ولم يكن الجهاد قد فُرِضَ بعد، وهذا اختيار كثير من أهل العلم– لو الآية نزلت في مكة فكيف نقول "جاهد"؟

قالوا "جاهد نفسَه"، أي أن نفسه تدعوه إلى الاستسلام، نفسُه تدعوه إلى الاستكانة وهو يجاهدها، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا}[آل عمران: 146] النفس تدعوك للاستسلام لماذا تصبر؟ ولماذا تتحمل الأذى في الطريق؟ ولماذا كل هذا الأذى البدني والنفسي؟ اترك.. ما الذي جلب لك كل هذا التعب؟؟ تمسكك؛ إذًا اترك ما تتمسك به.

لذلك من الآيات التي هي أشبه بمقدمات لسورة العنكبوت وهي خواتيم القصص، –وهذه أحد الأسباب التي قيلت في هذه الآية– النبي صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى الهجرة، **فكان السبب الرئيسي لخروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة تمسكه بالقرآن** فقال الله له في الآية التي نزلت عليه {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}[القصص: 85] **أي** أن تمسكك بالقرآنِ كما كان سببًا لخروجك من مكة فهو أيضًا –أي التمسك بالقرآن– يكون سببًا بإذن الله لعودتك إلى مكة منتصرًا.

فأحيانًا الإنسان تمسكه بالشيء يجعله يُؤذَى، تمسكك مثلًا بمبادئك بالصدق يجعلك تُؤذَى، فقد تفكر أن تترك هذا المبدأ أو هذه العقيدة، النفس تقول لك ما الذي يسبّب لك هذا التعب؟ أنك صادق أو أنك مؤمن، فاتركه؛ فهنا لابد أن يجاهد نفسه.

{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} **الإنسان لا يستعظم ما يُقَدمه، لكن ينبغي أن يفهم الإنسان أنه يفعل ذلك ليملأ صحيفة حسنَاته، الله غني عن العالمين** -كما خُتِمت الآية-.

{ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} ما معنى أن الله غني عن العالمين؟ ربنا سبحانه وتعالى يقول أيضًا في سورة القتال {ذَٰلِكَ وَلَو يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ} **إياك أن تعتقد أن الدين سيقف على الشيء الذي ستفعله أنت**، أحيانًا واحد يستعظم ما يُقدِّم فيقول: "أنا لو جلست في بيتي الدعوة تنهار"، لا، اجلس في بيتك، لا داعي لأن تُفَكر بهذه الصورة، جميل أن تستشعر أن لك دُور وأن تتحمس، لكن **أن تظن أنك بجهدك أنت؟! لا، هي بتوفيق الله سبحانه وتعالى.**

فكم من أُناس قدموا مجهودًا ولم يحدث شيء، هو ربنا الذي يُقَدِّر، ربنا سبحانه وتعالى هو الذي يَقذف في قلوب الناس الاستجابة، أما كلامك هذا فسبب قد يُؤتي ثمره وقد لا يؤتي، **جهدك في الدعوة سبب قد يؤتي ثمره وقد لا يُؤتي، فلابد أن تركن دائمًا إلى الله سبحانه وتعالى لا إلى جُهدك ولا إلى قُوتك.**

وإن لم يكن من الله عونٌ للفتى فأول ما يجني عليه اجتهادُه، لو لم يُعنك الله، فاجتهادك هذا يكون وبالًا عليك، لأن هنا ربنا سبحانه وتعالى يَكِلك إلى نفسك والعياذ بالله، الإنسان عندما يظن أنه هو الذكي وهو الذي يفهم وهو الذي يعلم وهو الذي يتسبب في ذلك ويستغني عن الآخرين يَكِله الله سبحانه وتعالى إلى نفسِه، وإن وَكلَك إلى نفسك وَكلَك إلى ضَيْعَةٍ وعورة، الإنسان يضيع، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[1].

[1] اللهم رحمتَك أرجو ، و لا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ ، و أصلِحْ لي شأني كلَّه ، لا إله إلا أنتَ.

الراوي: أبو بكرة نفيع بن الحارث | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الأدب المفرد | الصفحة أو الرقم: 539 | خلاصة حكم المحدث: **حسن**

فلذلك الإنسان لابد أن يفهم حينما يبذل للدين أنه يبذل لنفسه أولًا، هو يريد أن ينجو، **مهم جدًا أن تستحضر مسألة الثواب، فهذا الذي يجعلك تستمر**، أنك خائف أن تلقى الله سبحانه وتعالى ويسألك، خائف أن تُسأل في قبرك ما دينك، ماذا قدمت للدين؟ من الأسئلة المحورية التي سَتُسْأَلَها في القبر: ما دينك؟[2] **أي** ما المبادئ والعقائد التي كنت تنتمي لها وتُدافع عنها؟ ما هو هذا الدين؟

الدين الخضوع، إلى ماذا كنت تخضع؟ ما العقائد التي كنت تخضع لها؟ والأوامر والأحكام؟ هل كنت تخضع لهواك؟ إذًا هذا هو دينك، هل تخضع للدينار والدرهم؟!

(تعس عبد الدينار والدرهم)[3]، أم دينك الإسلام؟

لذلك هناك من سيقول عندما يُسأَل: ما دينك؟ هاه.. هاه لا أدري!، لا أعرف، لم أكن أُشغِل بالي من الأساس بقضية أني أبحث عن دين أو يكون عندي خضوع.

فقال ربنا سبحانه وتعالى {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} استحضر دائمًا أنك تفعل هذا لنفسك أنت، لتنجو، وبعض أهل العلم أشار إلى معنى: {لِنَفْسِهِ} أي لعموم المسلمين لأن {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات: 10]، فترْك البذل وترْك نصرة الدين سيعود عليكم بالوبال.

---

[2] ويَأْتِيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه فيقولانِ له مَنْ ربُّك فيقولُ ربِّي اللهُ فيقولانِ له ما دِينُك فيقولُ دِينِيَ الإسلامُ فيقولانِ لهُ ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فِيكم فيقولُ هو رسولُ اللهِ فيقولانِ لهُ وما يُدْرِيكَ فيقولُ قرأتُ كِتابَ اللهِ آمنْتُ وصدَّقْتُ.

الراوي: البراء بن عازب | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترغيب|الصفحة أو الرقم: 3558 خلاصة حكم المحدث: **صحيح** | التخريج: أخرجه أبو داود (4753)، وأحمد (18534) مطولاً

[3] تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، والدِّرْهَمِ، والقَطِيفَةِ، والخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ..

الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: 6435 |خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

لذلك كثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه إذا تركت الأمة الجهاد سيصيبها الذل والعار والخزي؛ فتخيل مثلًا هذا تَرَكَ حفظ القرآن، وهذا تَرَكَ التعليم، وهذا تَرَكَ الدعوة، وهذا تَرَكَ الاهتمام باللغة العربية، أُمَّة فقدت هُويتها، أمة فقدت كل شيء، أمة لم يعد لها أي رموز ولا أي هُويّة ولا أي قادة وأئمة يرجعون إليهم، وقلنا في أوائل السورة تصنع الأئمة -كما في مقدمة سورة القصص-.

فتخيل لو كل واحد يترك ثغره، فأنتم كأمة ستنهاروا، فلذلك هنا بعضهم قال في {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} **أي** سوف ترون ثمرة المجاهدة في الدنيا قبل الآخرة، وخطورة أن كل واحد يفكر يقول: أنا لا أقدم شيئًا، إذًا أنا أترك ثغري، وبال هذا يعود عليكم جميعًا.

لذلك لما مجموعة بسيطة فقط تركت مكانها -وليس كل الجيش-، مجموعة تركت مكانها في غزوة أحد الهزيمة أصابت الجميع! النبي صلى الله عليه وسلم قال للرماة يقفوا على الجبل ولا ينزلوا منه (ولو رأيتمونا تخطفنا الطير)[4]، فلما عصوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم؛ الجيش كله وقع في الهزيمة.

---

[4] جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى الرَّجَّالَةِ يومَ أُحُدٍ -وكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا- عَبْدَ اللَّهِ بنَ جُبَيْرٍ، فَقالَ: إنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هذا حتَّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ، وإنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وأَوْطَأْنَاهُمْ، فلا تَبْرَحُوا حتَّى أُرْسِلَ إلَيْكُمْ. فَهَزَمُوهُمْ، قالَ: فأنَا -واللَّهِ- رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقالَ أَصْحَابُ عبدِ اللَّهِ بنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ؛ ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ، فَما تَنْتَظِرُونَ؟ فَقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ ما قالَ لَكُمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالوا: واللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ. فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فأقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ في أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مع النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فأصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ يَومَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ ومِئَةً؛ سَبْعِينَ أَسِيرًا، وسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قالَ: أَفِي القَوْمِ ابنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قالَ: أَفِي القَوْمِ ابنُ الخَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أَصْحَابِهِ فَقالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَما مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقالَ: كَذَبْتَ واللَّهِ يا عَدُوَّ اللَّهِ؛ إنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وقدْ بَقِيَ لَكَ ما يَسُوؤُكَ، قالَ: يَوْمٌ بيَومِ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجَالٌ، إنَّكُمْ سَتَجِدُونَ في القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بها، ولَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ أَعْلَى وأَجَلُّ، قالَ: إنَّ لَنَا العُزَّى ولَا عُزَّى لَكُمْ. فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَلَا تُجِيبُوا له؟ قالَ: قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قالَ: قُولوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، ولَا مَوْلَى لَكُمْ..

الراوي: البراء بن عازب | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري| الصفحة أو الرقم: 3039| خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

فلا بد أن الإنسان يستحضر هذا المعنى أنه يساهم في ذلك وأن ذلك بتوفيقٍ من الله سبحانه وتعالى وأنه يملأ صحيفة حسناته، {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} **الله لا يحتاج إلى جهاد أحد**، {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}[محمد: 38] ببساطة.

الواحد وهو يقرأ هذه الآية يستحضر أن من الممكن أن أحدًا مثلًا: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} تخيل آتاه الله الآيات، ربنا الذي يقول آتيناه آياتنا، ثم بعد ذلك {فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}[الأعراف: 175] **أي** ممكن الإنسان يسير في الطريق ثم يُعرض فيُستبدَل؟ نعم! {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ}[إبراهيم:20، فاطر: 17] ، **ليس بين الله وبين أحد نسب، القضية هي عبودية، تقوم بمقام العبودية يستعملك الله سبحانه وتعالى، تُعرِض وتُوَلي الدُبر يستبدلك الله سبحانه وتعالى.**

فلذلك الإنسان لابد أن يستحضر هذا المعنى، تجد الآيتين وراء بعض آية مُشَوِّقة وآية مُخَوِّفة، {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} آية تُشوقك لرؤية وجه الله وتَحُثُك على البذل وأنك تجاهد نفسك لكي تصل إلى هذه المرحلة وتصبر وتصابر وتصبر على الأذى حتى تصل إلى هذه اللحظة.. رؤية وجه الله سبحانه وتعالى.

تأتي الآية التي بعدها تقول لك أنت تفعل ذلك لتنجو أنت {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} "إنّ" للتأكيد، و{الْعَالَمِينَ} كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة في الحديث القدسي (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا)، هل تتخيل؟! لو الناس كلها على أتقى قلب رجل واحد هذا لن يزيد في ملك ربنا شيئًا.

(ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا)،

(يا عبادي كلكم ضال) كلنا! فلان العالم والعابد والمجتهد، (كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) هل تتخيل هذا المعنى؟ (كلكم ضال) (كلكم عارٍ) حتى الغني والمليونير؟

نعم (كلكم عارٍ إلا من كسوته)[5]، قد يُصاب بمرض لا يستطيع أن يرتدي ملابسه وهو مليونير ولا يستطيع أن يعالج نفسه، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، قد تُنْزَع عنك كل الأسباب بأمر منه سبحانه وتعالى، بكلمة منه سبحانه وتعالى فتظل عاريًا، **فالإنسان لابد أن يَرْكن إلى الله سبحانه وتعالى دائمًا ويكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله.**

❖ هذه كانت المقدمة وذكر فيها:

- أن عُموم الناس لابد أن يُبتلى، وأن هناك أُناسًا يظنون ظنًا خاطئًا: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، هاتان آيتان فيهما: **ظن خطأ يقع فيه المؤمنون وظن خطأ يقع فيه المشركون.**

---

[5] عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فِيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قالَ: يا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ.وفي روايةٍ: إنِّي حَرَّمْتُ علَى نَفْسِي الظُّلْمَ وعلَى عِبَادِي، فلا تَظَالَمُوا..

الراوي: أبو ذر الغفاري | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم| الصفحة أو الرقم: 2577| خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

- ثم بعد هذا آيتان: **آية تشويق وآية تخويف** {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} و{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}.

- وبعد ذلك ختام المقدمة: **أن هناك أُناس سينجحون في هذه المهمة** {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

شرحنا المرة الماضية قاعدة أن أحيانًا يأتي لفظ مجمل مثل كلمة "التقوى"، كلمة "عملوا الصالحات"، كلمة "الإيمان"، كلها ألفاظ مجملة يُخصِصها السياق.

مثلًا "عملوا السيئات"، ممكن المفسر هنا يترك الكلمة على عمومها فيقول: السيئات أي كل الأعمال السيئة، وممكن يقول {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} السيئات هنا المقصود بها تعذيب المؤمنين، وأن كلمة الصالحات هنا لها مقصد معين، وهذا لا يمنع أن الآية أيضًا تظل على عمومها ليظل القرآن مِعطاء، لكن أوْلى ما تَصْدُق عليه الآية هو كذا.

هنا بعد أن ذكر ربنا سبحانه وتعالى هذه الآيات قال {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} **فما المقصد هنا بالصالحات؟**

مِن المفسرين من تركها على عمومها **أي**: الذي قام بكل الأعمال الصالحة قدر استطاعته، ومن المفسرين من خصَّص فقال المقصود هنا من " وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " **أي**: صبروا على أذى المشركين لهم ولم يُفتَنوا، لأن السياق يتكلم عن أن المشركين يقومون بتعذيب المسلمين في مكة –وهذا كان يحدث في مكة وليس في المدينة– فمنهم من فُتن وترك الدين وارتد، ومنهم من ثَبُت وصبر وصابر وجاهد فوفقه الله سبحانه وتعالى.

إذًا {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} المقصد هنا تحديدًا -لو أردنا أن نخصص كلمة الصالحات حسب السياق- نقول معنى الصالحات ماذا؟ صبروا على أذى المشركين ولم يُفتَنوا، {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} حسنًا وما ثوابهم؟

{لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، **ما المقصود بـ** {لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}؟

من المفسرين من قال -وهذا اختاره الطبري-: كلمة سيئات المقصود بها الأفعال التي كانت على الشرك قبل الإسلام؛ لأن القرآن نزل على واقع كان الصحابة مشركين أولًا ثم أسلموا، بعد أن أسلم الصحابة تعرضوا للأذى من مشركي قريش فصبروا وثبتوا وهذا العمل الصالح الذي هو الصبر على أذى المشركين.

إذًا فما هي السيئات؟ أعمال الشرك، {لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} أي الأعمال التي عملوها في الشرك.

ومنهم -المفسرين- من قال لا، ليس هذا المقصود، ولكن المقصود أن مهما كان الإنسان مؤمنًا وصابرًا ومصابرًا ويجاهد نفسه ويجاهد لنصرة الدين ومهما كان المؤمن ثابتًا لابد أن يقع في المعاصي، هذه المعاصي التي يقع فيها المؤمن طالما أنه يعمل للدين ويصبر ويثبت ولا يقع في الفتنة ويمسك بالجمرة -التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن القابض على دينه كالقابض على الجمر- فإن الله يُكَفِّر عنه سيئاته.

إذًا الآية هنا -لو اخترنا المعنى الثاني- تشير إلى أنه **لا يكون عندنا تصور مثالي عن المؤمن العامل لدين الله**؛ فأحيانًا الواحد يتخيل أنه طالما الإنسان سيعمل للدين، يجب أن يكون لا يفعل أي معاصي، ومَن

هذا الذي لا يفعل معاصي؟! كلنا نفعل المعاصي. قال النبي –صلى الله عليه وسلم– بصيغة العموم (كل بني آدم..) هل قال: مخطئًا؟؟

لا بل قال: (كل بني آدم خطّاء) أي أنه لا يخطئ خطأ واحدًا وحسب، فمخطئ: اسم فاعل، لكن خطّاء: صيغة مبالغة (كل بني آدم خطّاء)[6]؛ فإذا كنا كلنا خطاؤون، فمن أحسن مِن مَن؟ فمن أحسن مِن مَن طالما أننا جميعًا نخطئ؟

(وخير الخطائين التوابون) لما كان كثير الخطأ كان كثير التوبة، جاءت "التوّاب" بصيغة مبالغة أيضًا (وخير الخطائين التوابون)، إذًا لا يكون عندك تصور مثالي عمن يعمل لدين الله، فإذا سُئل مثلًا: لماذا لا تُحفِّظ القرآن؟ لماذا لا تقوم بعمل للدعوة؟ لا تحفِّظ الأطفال القرآن؟ لماذا لا تفكر في أي شيء تفعله؟ فيقول: "لا، أنا لا أنتمي لهذه الأجواء الخاصة بكم، أنا لازال أمامي طريق طويل حتى أصل، مازلت أحتاج بعض الوقت، وألتزم"!

فتقول له: لماذا تربط العمل للدين بتصور معين أو بهيئة معينة؟ {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[التغابن: 16] افعل ما تقدر على فعله، أي شيء تقدر عليه افعله، أنت لا تعلم ما الذي ينفعك، لا تعلم ما الذي ستنجو به، **لا تعلم ما الذي يكون في صحيفتك فتنجو به يوم القيامة، لا تعلم ما الذي سيثقل في الميزان**، فأي شيء تستطيعه، أي شيء مثل إماطة الأذى من المسجد أومن الطريق، أي شيء تقدر على فعله افعله.

[6] كلُّ بَني آدَمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائين التَّوابُون..

الراوي: أنس بن مالك | المحدث: الإمام أحمد | المصدر: المنتخب من العلل للخلال| الصفحة أو الرقم: 72| خلاصة حكم المحدث: **منكر**

الرجل وهو يميط الأذى من الطريق ماذا قال؟ (لا يصيب المسلمين) ***هو مشغول بالمسلمين*** ولسان حاله: أنا كل ما أقدر على فعله للمسلمين أن أُبعِد هذا الأذى عن طريقهم، (فغُفر له)[7]! انظر إلى نيته! وكأنه أُجر بكل مسلم.

أحيانًا –كما يُروى– **أن نية المؤمن أبلغ من عمله**؛ فلا يكون عندك تصور مثالي، تقول له: "اعمل في الدعوة أو افعل أي شيء للدين"، يقول: "لا، أنا سأسلك الطريق من أوله إلى أن أصل"، لا، فقد كان الصحابي ليس فقط على الشرك، بل يكون من الصادّين عن الدين وممن يقاتل المسلمين ثم يسلم، ومباشرة يذهب لنصرة الدين! ومنهم من مات في سبيل الله ولم يسجد لله سجدة، أي بمجرد أن أسلم ذهب ليقاتل فمات، هل تتخيل؟!

مثل السحرة، سحرة فرعون، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء –على قول أن فرعون نفذ فعلًا أمر قتلهم مباشرة وذكرنا هذا في سورة الأعراف– لكن **الشاهد:** لا يكون عندك تصور مثالي أنك لا بد أن تكون لا تخطئ، بل تخطئ لكن هل أستمرأ الخطأ؟ لا، (خير الخطائين التوابون)، **فكلما أكثرت من الخطأ، أكثرت من التوبة، ويكون لك رصيد من الأعمال الصالحة التي تكون سببًا في تكفير السيئات.**

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، إذًا المؤمن في الطريق إلى الله يفعل شيئين:

- أحيانًا يُفتح عليه ويجتهد ويقوم بأعمال رائعة جدًا.
- وأحيانًا يُخطئ ويقع في السيئات.

[7] بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ له فَغَفَرَ له..

الراوي: أبو هريرة | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم |الصفحة أو الرقم: 1914| خلاصة حكم المحدث: [**صحيح**]| التخريج: أخرجه البخاري (652) مطولاً، ومسلم (1914)

فتجد شخصًا مثلًا يُفتَح عليه في باب من أبواب الدين ويقوم بأقصى طاقته فيه ويكون هذا العمل الذي يقوم به في الدين هو أحسن ما يفعل، وفي نفس الوقت، هو نفس الشخص يقع في بعض السيئات، لكن يجاهد نفسه، لا يستمرئ الوضع .

وتكلمنا في دروس الإشكاليات عن الكادر الذي يعمل للدين ويقع في كبائر ويستمرئ الوضع، وقلنا أن هذا أشبه بقنبلة موقوتة للأسف، فهو يتعامل وكأنه لا يذنب، يقول المعاصي ستذهب بنفسها، فليس عنده أي ندم أو توبة، ولا يفكر كيف سيصلح نفسه فأنا هنا لا أتكلم عن هذا النموذج، بل أتكلم عمن يخطئ ويقع، فيندم ويتألم لذلك، ويقع مرة أخرى وثانية وثالثة ويتوب (إن الله لا يَمل حتى تملوا)[8] **إياك أن تمل من التوبة.**

هذا النموذج هو شخص تجده قد يُفتَح له في عمل جيد للدين ويقع في معصية، فانظر إلى معاملة الله الرائعة الجميلة (إن الله جميل)[9] السيئات تُكفَّر، وكلمة {نُكَفِّرَنَّ} **والتكفير** هو التغطية، أي كأنها غير موجودة حتى لا يُعيَّر بها، بل الأعلى من ذلك –كما جاء في سورة الفرقان وهذا من أجمل المواطن في القرآن– أن هذه السيئات ماذا يحدث لها أيضًا؟ تُبدَّل حسنًات!

[8] أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا باللَّيْلِ فيُصَلِّي عليه، ويَبْسُطُهُ بالنَّهارِ فيَجْلِسُ عليه، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيُصَلُّونَ بصَلَاتِهِ حتَّى كَثُرُوا، فأقْبَلَ فَقالَ: يا أيُّها النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأعْمَالِ ما تُطِيقُونَ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا، وإنَّ أحَبَّ الأعْمَالِ إلى اللَّهِ ما دَامَ وإنْ قَلَّ..

الراوي: عائشة أم المؤمنين | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: 5861 | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

[9] إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ سخيٌّ يحبُّ السَّخاءَ نظيفٌ يحبُّ النَّظافةَ.

الراوي: عبدالله بن عمر | المحدث: السفاريني الحنبلي | المصدر: شرح كتاب الشهاب | الصفحة أو الرقم: 496 | خلاصة حكم المحدث: **إسناده ضعيف**

لذلك لما يؤتى يوم القيامة (يُعرض عليه صغار الذنوب قبل كبارها فيخشى الهلكة)[10]، وأنا أكلمك عن شخص مؤمن وتعرض للفتنة وصبر، ووقع في السيئات، فيُعرَض عليه صغار الذنوب قبل كبارها يُقال له: أتذكر المجلس كذا حين اغتاب فلانٌ فلانَ وأنت ابتسمت؟

أنت تتعجب: هل هذا ذنب؟! أتذكر لما كذا وادعيت أنك تربط الحذاء وكنت تنظر ل... أتذكر؟ في الجامعة؟ أتذكر أم لا؟

أنت لا تراه ذنبًا تُحاسب عليه، تقول هذا أبسط شيء، فتقول لو أُحاسَب على كل هذا فقد انتهى أمري! حتى يظن الهلاك، (يعرض عليه صغار الذنوب قبل كبارها فيقال قد غفرتها لك أو سترتها عليك في الدنيا وأبدلتها حسنًات).. فما هذا؟ يقول حينها (يا رب إن لي ذنوبا ها هنا لم أرها) حينها يقول: لا، فأنا عندي ذنوب كثيرة -بما أن الذنوب تبدل حسنات-.

فانظر إلى رحمة الله -سبحانه وتعالى.. فهكذا يعامل الله -سبحانه وتعالى- أولياءَه، فالإنسان يتعجب كما قال ربنا سبحانه وتعالى { أَفَتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَولِياءَ مِن دوني وَهُم لَكُم عَدُوٌّ} فهل يترك أحدًا ربنا ويختار الشيطان؟ {بِئسَ لِلظّالِمينَ بَدَلًا}[الكهف: 50] كيف؟! كيف يختار الإنسان طريق الشيطان ويترك طريق الرحمن؟

{لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

[10] إنِّي لأعْرِفُ ، آخِرَ أهلِ النارِ خروجًا مِنَ النَّارِ ، وآخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولًا للجنةِ ؛ رجلٌ يؤْتَى بِهِ يومَ القيامَةِ ، فيُقَالُ : اعْرِضُوا عليه صغارَ ذُنوبِهِ ، وارفعوا عنه كِبارَها ، فيقالُ لَهُ : عمِلْتَ يومَ كذَا وكذا ، كذا وكذا وعمِلْتَ يومَ كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيقولُ : نعم ، لا يستطيعُ أنْ يُنكِرَ ، وهو مشفِقٌ مِنْ كِبارِ ذنوبِهِ أنْ تُعْرَضَ عليه فيُقالُ له : فإنَّ لَكَ مكانَ كلِّ سيِّئَةٍ حسنةً ، فيقولُ : يا ربِّ عمِلْتُ أشياءَ لَا أراها ههنا.

الراوي: أبو ذر الغفاري | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: 2485 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

إذًا حتى الآية ٧ أشبه بمقدمة للسورة، السنن، معاملة ربنا –سبحانه وتعالى– للمؤمنين وللمشركين، وهذه سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

ثم بدأ أول فتنة {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حسنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.

○ سبب لنزول:

أولًا، قبل أن نتكلم في ألفاظ الآية –وهذا هو الترتيب الصحيح: أن تبحث أولًا هل هناك **سبب نزول** ورد عن السلف، أو السلف تكلموا في الآية، بحيث أنك قد تبتعد كثيرًا في تفسير الآية بعيدًا عن كلام السلف، **فالعودة لأسباب النزول ولقول السلف يضبط فهمك للآية بحيث حين تريد أن تُسقِط الآية على واقعك تعرف الآية ابتداءً فيم نزلت، وتعلم من كلام المفسرين هل المعنى الذي ذُكِر يصلح للعموم أم الخصوص.**

هذه الآية قيل فيها أكثر من قول، أشهرها أثر موجود في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أن أمه –وهو حديث طويل– بدايته أن سيدنا سعد بن أبي وقاص قال: (نزلت فيّ أربع آيات..)[11] وذكر منها هذه الآية، أنه لما أسلم في مكة، أمه امتنعت عن الطعام والشراب وقالت: "أنت

[11] أَنَّهُ نَزَلَتْ فيه آيَاتٌ مِنَ القُرْآنِ قالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حتَّى يَكْفُرَ بدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قالَتْ: زَعَمْتَ أنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بهذا، قالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ له عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو علَى سَعْدٍ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في القُرْآنِ هذِهِ الآيَةَ: {وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوَالِدَيْهِ حُسْنًا وإنْ جَاهَدَاكَ علَى أَنْ تُشْرِكَ بي} وَفِيهَا {وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}.

قالَ: وَأَصَابَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ غَنِيمَةً عَظِيمَةً، فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ فأخَذْتُهُ، فأتَيْتُ به الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقُلْتُ: نَفِّلْنِي هذا السَّيْفَ، فأنَا مَن قدْ عَلِمْتَ حَالَهُ، فَقالَ: رُدَّهُ مِن حَيْثُ أَخَذْتَهُ فَانْطَلَقْتُ، حتَّى إذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ في القَبَضِ لَامَتْنِي نَفْسِي، فَرَجَعْتُ إلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَعْطِنِيهِ، قالَ فَشَدَّ لي صَوْتَهُ رُدَّهُ مِن حَيْثُ أَخَذْتَهُ قالَ فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنْفَالِ}.

قالَ: وَمَرِضْتُ فأرْسَلْتُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فأتَانِي، فَقُلْتُ: دَعْنِي أَقْسِمْ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ، قالَ فأبَى، قُلْتُ: فَالنِّصْفَ، قالَ فأبَى، قُلْتُ: فَالثُّلُثَ، قالَ فَسَكَتَ، فَكَانَ، بَعْدُ الثُّلُثُ جَائِزًا.

دينك يأمرك بصلة الأرحام"، ألستم تقولون –أنتم يا سنيين أو يا ملتزمين– كذا؛ "فإذًا أنا أقول لك أن تشرك بربنا وأنت عليك أن تطيعني"، ألا تقول أنكم مأمورون في الدين ببرّ الوالدين والطاعة؟ فعليك أن تسمع كلامي.

فتخيل الضغط النفسي الذي يمر به إنسان مكان سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه!

الإشكال هنا في الآية أن يأتي {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حسنًا} ثم {وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ} ولاحظ لفظ الجهاد هذا –فقد جاء في { وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ} وفي ختام السورة { وَالَّذِينَ جاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا}–، فجاهداك المقصود هنا أن الأب والأم، والأم تحديدًا لوهنا في سياق سبب النزول، فهل جاهدته بالسيف؟ لا، **فبم جاهدته؟**

بالعاطفة، بالمشاعر، فهو يُضغَط عليه نفسيًا أكثر؛ لذلك **أول فتنة** بُدء بها هي هذه الفتنة –قبل فتنة الإيذاء– فبعد ذلك يأتي {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} أنه أوذي بدنيًا ولكن الأذى النفسي أحيانًا يكون أصعب من الأذى البدني، لماذا؟

قالَ: وَأَتَيْتُ علَى نَفَرٍ مِنَ الأنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، فَقالوا: تَعَالَ نُطْعِمْكَ وَنَسْقِكَ خَمْرًا، وَذلكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الخَمْرُ، قالَ فأتَيْتُهُمْ في حَشٍّ، وَالْحَشُّ البُسْتَانُ، فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عِنْدَهُمْ، وَزِقٌّ مِن خَمْرٍ. قالَ فأكَلْتُ وَشَرِبْتُ معهُمْ، قالَ فَذَكَرْتُ الأنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ. فَقُلْتُ: المُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الأنْصَارِ. قالَ فأخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيَيِ الرَّأْسِ فَضَرَبَنِي، به فَجَرَحَ بأَنْفِي فأتَيْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فأخْبَرْتُهُ فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ، يَعْنِي نَفْسَهُ، شَأْنَ الخَمْرِ: {إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنْصَابُ وَالأزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ}.

وفي رواية: عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ، عن أَبِيهِ، أَنَّهُ قالَ: أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ، وَسَاقَ الحَدِيثَ بمَعْنَى حَدِيثِ زُهَيْرٍ، عن سِمَاكٍ.

وَزَادَ في حَدِيثِ شُعْبَةَ: قالَ فَكَانُوا إذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بعَصًا، ثُمَّ أَوْجَرُوهَا.

وفي حَدِيثِهِ أَيْضًا: فَضَرَبَ به أَنْفَ سَعْدٍ، فَفَزَرَهُ وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْزُورًا..

الراوي: سعد بن أبي وقاص | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: 1748 | خلاصة حكم المحدث: [**صحيح**]

لأن هنا مَن يجاهدك يحمل لك شفقة وعاطفة، أي أن من يضغط عليك حتى تبتعد عن الدين لا يحمل لك عداء، أحيانًا العداء والإيذاء والمهانة تُولِّد لديك رد فعل عكسي –فتتمسك بالدين–، لكن الأخطر أن تأتيك الفتنة من مدخل العاطفة، أنها تنظر إليك وهي تبكي، فالدافع هنا الشفقة والرحمة عليك، فأنت تفكر وتدخل في صراع نفسي.

لذلك جاء القرآن وجاءت السنة لتضع حدًا فاصلًا أن هناك احترام للمشاعر لكن عند حد معين (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[12].

وهذه الآية عجيبة جدًا.. أريدك أن **تتخيل المشهد**: ربنا سبحانه وتعالى يأمرنا بأوامر: ثم هناك واحد مسلم، وهو –مثلًا– سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كنموذج لسبب النزول وأمه، الأم تأمر سعد بالشرك بالله، والله يأمر سعد بطاعة أمه التي أمرته بالشرك بالله، ويقول الله سبحانه وتعالى لكل عبد وقف في هذا المقام: **لا تُطعها في الشرك لكن عاملها بالإحسان!**

انظر إلى رحمة ربنا سبحانه وتعالى، **فالإسلام قائم على حقوق، كيف يكون المسلم متوازنًا حتى نفسيًا**، فهي تجاهده، لا تقول فقط جرب الشرك، ربما يعجبك، لا، هي لا تقول له كلمتين وانتهى الأمر، بل تضغط عليه نفسيًا، تفعل قصارى جهدها.

فقلنا أن معنى "جاهد" أنه يتكلف في الأفعال، فهي تبذل قصارى جهدها في الضغط، استعملت كل الوسائل! { وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي} **والغرض** –اللام تبين السبب– أنهم يريدون أن يصلوا في النهاية

[12] لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

الراوي: - | المحدث: ابن القيم | المصدر: أعلام الموقعين | الصفحة أو الرقم: 58/1 | خلاصة حكم المحدث: **صحيح**

أن يصبح مشركًا، والدافع الرئيسي في مثل هذه المواطن هو الخوف، الدافع من الأم هنا أنها تكون خائفة على ابنها، **فكيف يحفظ الإنسان حق الأم ويحفظ حق الله؟**

حق الله ألا تشرك به شيئًا، **وحق الأم** المعاملة بإحسان، وقد لا يستطيع أحدهم أن يوازن، فإما يطيع الأم دائمًا وفي جميع الأمور، أو يقول أنا سأطيع كلام ربنا وطالما طالبتني بالشرك أنا سأعاملها معاملة سيئة، لا، بل أنت مُطالَب أن تقوم بالأمرين معًا، أن تتوازن، أن تطيع ربنا، تعطي حق الله، ثم تعطي حق الوالدين، **وحق الله أولًا**، (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، **إذًا أنا لن أطيعهما في الشرك، فكيف سأفعل ذلك؟ فهي تطالبني بالشرك؟ هل أضربهما؟**

لا، {إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} ربنا هو من سيحاسبهم؛ فهنا هذه المعاملة تحديدًا مع الوالدين أنت مطالب بالمعاملة بالإحسان حتى لو كانا على الشرك ويجاهدانك على أن تشرك بالله، هل تتخيل؟!

إذًا تخيل إذا كانا مسلمَين ويطلبان منك أصلًا أن تطيع ربنا، فهل تتخيل المشهد؟ { وَيلَكَ آمِن إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ}[الأحقاف:17] تخيل ما يفعله العاق لوالديْه المؤمنيْن اللذيْن يطلبان منه الإيمان بالله، وهو يَعقُّهم! كيف تتوقع يكون عقابه؟

إذا كان ربنا يقول للمسلم الذي أبوه وأمه مشركان، ويطالباه بالشرك، ويجاهداه على الشرك، أن يعاملهما بالإحسان؟! فانظر إلى رحمة ربنا سبحانه وتعالى بالأب وبالأم حتى وهما على الشرك.

لذلك نقول أن الضغط النفسي وقضية المشاعر ربما تكون أصعب فتنة يتعرض لها الإنسان، وهذا يجده -ليس فقط من يُوضع في هذا الموطن- هذا يجده كل إنسان صاحب علو همة، أي إنسان عنده علو همة ويريد أن يضحي ويريد أن يبذل، غالبًا ما يُقابَل باللوم ممن حوله، من أصدقائه، من أقربائه،

من الناس الذين يحبونه، لأن دائمًا أي بذل وأي تضحية، أي بذل يبذله الإنسان للدين طبيعي أنه سيفقد شيئًا من دنياه أو سيفقد شيئًا من أمنياته أو سيفقد شيئًا من طموحاته، لأنها تُسمَى تضحية، فهو سيضحي بشيء يحبه.

لذلك قال ربنا -سبحانه وتعالى: { يُجَاهِدونَ فِي سَبيلِ اللَّهِ وَلا يَخافونَ لَومَةَ لائِمٍ}[المائدة: 54] **غالبًا كل مجاهدة معها لوم، أي نوع مجاهدة أنت تبذله غالبًا يكون معه ناس يلومونك على ما تفعل،** يقول لك: ليس بهذا الشكل يا بني، لماذا تفعل كذا؟ وما هذا الذي تفعله؟ وهذا ليس من الدين.

تريد أن تنزل لتصلِي الفجر في المسجد، تريد أن تدعُو إلى الله، تريد أن تطلب العلم، تريد أن تسهر لتتعلم، تريد أن تنزل تكلم الناس في الشارع، أي عمل تريد أن تعمله يجب أن يصاحبه تضحية، وأي تضحية غالبًا هناك مَن يلومك عليها، وهذا الذي يلومك غالبًا ما يحبك فيكون الدافع أنه يحبك، ربما يكون حسدًا لكن أنا أتكلم عن مَن يحبك فهنا لومه لك يترك أحيانًا أثرًا، **فكل صاحب علو همة غالبًا يُلام.**

لذلك جاء في الآية: { وَلا يَخافونَ لَومَةَ لائِمٍ}[المائدة: 54] كان الزمخشري له كلام جميل جدًا في الآية هنا، **يقول أن لها معنى من الاثنين:**

- إما أن المؤمنين يجاهدون اليهود، ويجاهدون في سبيل الله، ولا يخشون لوم اليهود.

وهذا عكس المنافقين، فالمنافقون يخافون الخروج للجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم لأن لهم معاهدات مع اليهود، فلو المنافق خرج مع الجهاد، اليهودي سيُذّكره ويقول أليس بيننا اتفاقات إلى أين أنت ذاهب؟ فيخاف من اليهود، يخاف أن الدائرة تأتي والدولة تصبح لليهود، فيخسر المعاهدات التي بينهم مثل ابن سلول.

وقال هناك معنى آخر يصلح –حتى لوكان هذا هو سياق الآية:

- أن المؤمن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في سبيل الله يُلام مِن الناس، الناس تلومه وتقول له لماذا تفعل كذا؟

بل الناس أحيانًا تنظر له على أنه سفيه { أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ}[البقرة: 13]، المنافقون في المدينة لما رأوا أن نموذج الإيمان الذي أمامهم هو نموذج المهاجر: واحد ترك أرضه وسماءه وبلده وأهله وماله، وآخر –الأنصار– قسَّم ماله مع أشخاص لا يعرفهم، تخيل كيف كانت صدمة على المنافقين في المدينة، تخيل نموذج الإيمان الذي يُطرَح عليهم! ليس لشخص ترك بعض المعاصي، بل نموذج الإيمان الذي رأوه لأول وهلة هو المهاجرين والأنصار، وكأنه قال: ألا يوجد غير هذيْن الاختياريْن؟ إذًا سأكون أنا المنافق فأسد الثغرة! أشعر أن هناك شيئًا ناقصًا.

إذًا هو لما رأى هذا النموذج قال: لا، أهذا هو الدين؟ هؤلاء سفهاء! واحد ضحى بالمال وبالأرض وبالعائلة، ربما يرى مهاجرًا ترك زوجته في مكة وترك ابنه في مكة، ورأى أنصاريًا قسم ماله نصفين، ماله الذي تعب من أجله، تخيل هذا أصلًا بالنسبة لليهودي شيء عجيب جدًا، كيف تقسم نقودك مع أشخاص لا تعرفهم؟! والأعجب مثلًا أن مهاجري يرفض! هو يشعر أن هناك لَبْسًا، لماذا يفعلون هذا؟ هولا يفهم، فبالتأكيد هو يرى أن النموذج الذي عرض عليه في الدين هو غير قادر على تخيله، غير قادر على تحمله فلم يقبله.

فهناك أشخاص حين تراك تفعل هذا تلومك، يقولون: لماذا تفعل هذا؟ ويلومك حقًا لأنه عنده مبادئ معينة، للأسف انتشار الفكر المادي جعل المادة هي المعيار رقم واحد، أي شيء تفعله في الحياة يجعلك تخسر ماديًا فأنت مخطئ، المعيار للصح والخطأ هو النقود.

فلو عُرض عليك مثلًا وظيفة معينة بمرتب شهري كبير جدًا وأنت تخرجت حديثًا وهذه الوظيفة شرعًا حرام قولًا واحدًا –ليس فيها خلاف– ومن يلومك يعلم أنها حرام، فلو أنت رفضتها سيقول لك: أنت مجنون! ويقول ذلك ليس بدافع الحسد بل الدافع هنا أنه يهتم لأمرك، يقول لك: يا أخي هل أنت مجنون؟ لماذا تفعل هذا؟ ويظل يُلحّ عليك.

عائلة وقبيلة كعب بن مالك، لما تخلف عن غزوة تبوك وبعدها رجع النبي صلى الله عليه وسلم وذهب إليه سيدنا كعب واعترف بالصدق وكان يجاهد نفسه حتى يقول الصدق، وجاهد الشيطان، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك)[13].

[13] أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ -وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِن بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ- قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عن قِصَّةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلَّا في غَزْوَةِ تَبُوكَ، غيرَ أنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتِبْ أحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إنَّما خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حتَّى جَمَعَ اللَّهُ بيْنَهُمْ وبيْنَ عَدُوِّهِمْ علَى غيرِ مِيعَادٍ، ولقَدْ شَهِدْتُ مع رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا علَى الإسْلَامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كَانَتْ بَدْرٌ أذْكَرَ في النَّاسِ منها، كانَ مِن خَبَرِي: أنِّي لَمْ أكُنْ قَطُّ أقْوَى ولَا أيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْه في تِلكَ الغَزَاةِ، واللَّهِ ما اجْتَمَعتْ عِندِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلكَ الغَزْوَةِ، ولَمْ يَكُنْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إلَّا وَرَّى بغَيْرِهَا، حتَّى كَانَتْ تِلكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا ومَفَازًا وعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أمْرَهُمْ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فأخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، والْمُسْلِمُونَ مع رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَثِيرٌ، ولَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ -يُرِيدُ الدِّيوَانَ- قَالَ كَعْبٌ: فَما رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلَّا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لَمْ يَنْزِلْ فيه وَحْيُ اللَّهِ، وغَزَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تِلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلَالُ، وتَجَهَّزَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والْمُسْلِمُونَ معهُ، فَطَفِقْتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّزَ معهُمْ، فأرْجِعُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فأقُولُ في نَفْسِي: أنَا قَادِرٌ عليه، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والْمُسْلِمُونَ معهُ، ولَمْ أقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، فَقُلْتُ: أتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيَومٍ أوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ ألْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فَصَلُوا لِأتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ بي حتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُمْ، ولَيْتَنِي فَعَلْتُ! فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلكَ، فَكُنْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَطُفْتُ فيهم، أحْزَنَنِي أنِّي لا أرَى إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ، أوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وهو جَالِسٌ في القَوْمِ بتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ونَظَرُهُ في عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ ما قُلْتَ، واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا، حَضَرَنِي هَمِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وأقُولُ: بِمَاذَا أخْرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا؟! واسْتَعَنْتُ علَى ذلكَ بكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِن أهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وعَرَفْتُ أنِّي لَنْ أخْرُجَ منه أبَدًا بشَيْءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَادِمًا، وكانَ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بَدَأَ بالمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ ويَحْلِفُونَ له، وكَانُوا بِضْعَةً وثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: ما خَلَّفَكَ؟ ألَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، إنِّي واللَّهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غيرِكَ مِن أهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أنْ سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولَكِنِّي واللَّهِ، لقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّهِ، لا واللَّهِ، ما كانَ لي مِن عُذْرٍ، واللَّهِ ما كُنْتُ قَطُّ أقْوَى،

ولَا أيْسَرَ مِنّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقالوا لِي: واللَّهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذا، ولَقَدْ عَجَزْتَ أنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعْتَذَرَ إلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قدْ كانَ كافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكَ، فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حتَّى أرَدْتُ أنْ أرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلتُ لهمْ: هلْ لَقِيَ هذا مَعِي أحَدٌ؟ قالوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ ما قُلْتَ، فقِيلَ لهما مِثْلُ ما قيلَ لَكَ، فَقُلتُ: مَن هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِما أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي، ونَهَى رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسْلِمِينَ عن كَلَامِنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ مِن بَيْنِ مَن تَخَلَّفَ عنْه، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا حتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الأرْضُ، فَما هي الَّتي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَا علَى ذلكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وقَعَدَا في بُيُوتِهِما يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أنَا، فَكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أخْرُجُ فأشْهَدُ الصَّلَاةَ مع المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأسْوَاقِ ولَا يُكَلِّمُنِي أحَدٌ، وآتِي رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فأقُولُ في نَفْسِي: هلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بَرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا منه، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإذَا أقْبَلْتُ علَى صَلَاتِي أقْبَلَ إلَيَّ، وإذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي، حتَّى إذَا طَالَ علَيَّ ذلكَ مِن جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبِي قَتَادَةَ، وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يا أبَا قَتَادَةَ، أنْشُدُكَ باللَّهِ، هلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَقالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أنَا أمْشِي بسُوقِ المَدِينَةِ، إذَا نَبَطِيٌّ مِن أنْبَاطِ أهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بالمَدِينَةِ، يقولُ: مَن يَدُلُّ علَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له، حتَّى إذَا جَاءَنِي دَفَعَ إلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإذَا فِيهِ: أمَّا بَعْدُ؛ فإنَّه قدْ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قدْ جَفَاكَ، ولَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ ولَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهذا أيْضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بهَا، حتَّى إذَا مَضَتْ أرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إذَا رَسولُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْتِينِي، فَقالَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امْرَأتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أمْ مَاذَا أفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا ولَا تَقْرَبْهَا، وأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأتِي: الْحَقِي بأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ في هذا الأمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأةُ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ: إنَّ هِلَالَ بنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، ليسَ له خَادِمٌ، فَهلْ تَكْرَهُ أنْ أخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنْ لا يَقْرَبْكِ.

قَالَتْ: إنَّه واللَّهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شَيءٍ، واللَّهِ ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كانَ مِن أمْرِهِ ما كانَ إلى يَومِهِ هذا، فَقَالَ لي بَعْضُ أهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امْرَأتِكَ كما أذِنَ لِامْرَأةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: واللَّهِ لا أسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدْرِينِي ما يقولُ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتَّى كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِن حِينَ نَهَى رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وأَنَا علَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أنَا جَالِسٌ علَى الحَالِ الَّتي ذَكَرَ اللَّهُ؛ قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبَ بنَ مَالِكٍ، أبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، ورَكَضَ إلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وسَعَى سَاعٍ مِن أسْلَمَ، فأوْفَى علَى الجَبَلِ، وكانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إيَّاهُما ببُشْرَاهُ، واللَّهِ ما أمْلِكُ غَيْرَهُما يَومَئِذٍ، واسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّونِي بالتَّوْبَةِ، يقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإذَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وهَنَّانِي، واللَّهِ ما قَامَ إلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، ولَا أنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ علَى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أبْشِرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أمِنْ عِندِكَ يا رَسولَ اللَّهِ أمْ مِن عِندِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِن عِندِ اللَّهِ. وكانَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ أنْخَلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إلى اللَّهِ وإلَى رَسولِ اللَّهِ، قَالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهو خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: فإنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الذي بخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ إنَّما نَجَّانِي بالصِّدْقِ، وإنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ ما أعْلَمُ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أبْلَاهُ اللَّهُ في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أحْسَنَ مِمَّا أبْلَانِي؛ ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يَومِي هذا كَذِبًا، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيما بَقِيتُ، وأَنْزَلَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} إلى

فسيدنا كعب وهو عائد من عند رسول الله أقرباؤه ظهروا بجانبه وقالوا له: "ما الذي فعلته؟ لَمَ لَمْ تقل له يا رسول الله استغفر لي؟ أأنت أحسن من باقي الناس؟ ها هم باقي الناس قالوا له استغفر لنا يا رسول الله وانتهى الأمر"، وما زالوا به حتى هَمَّ أن يرجع، فهؤلاء عائلته وهم يخافون عليه، أكان يجب أن تقول الصدق؟ ماذا كان ليحدث لو قلت كلمة؟ قل له أنا والله كذا وأنت حقًا كان عندك انشغالات، هل كنت تلعب؟ أنت كان عندك انشغالات مهمة.

ويظلوا يُلِحّون عليه، والدافع هنا أحيانًا يكون الشفقة؛ وهذا أحيانًا يكون صعبًا على الإنسان أن يرفضه، لكن أن يواجهك أحدهم بعداء وأذى فربما كرد فعل نفسي ترفض هذا وتزداد أصلًا تَثَبُتًا وتزداد تشبثًا بما أنت عليه، لكن حين يكون الدافع الشفقة أنت ربما تضعف وتنهار، ربما تفكر في الكلام وتقول صحيح هو خائف عليَّ، هو أصلًا لما طلب مني كذلك لم يكن دافعه سوى خوفه عليَّ؟ ربما عليَّ أن أفكر في الكلام.

لذلك حين دخل الشيطان لسيدنا آدم دخل له من مدخل أنه خائف عليه { وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحينَ}[الأعراف: 21] قال له والله أنا لا أريد شيئًا، أنا أنصحك لله، لأنه قاسمهما، يقول له أنا خائف عليك، أنت ستخرج من الجنة بعد وقت قصير، الحل الوحيد لتظل في الجنة أن تأكل من هذه الشجرة، وأنا خائف عليك أنا شيطان أصلًا فبالنسبة لي الأمر مقضي، لكني أريدك أنت أن تكون

قَوْلِهِ: {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 117 - 119]، فَوَاللَّهِ ما أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِن نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ في نَفْسِي مِن صِدْقِي لِرَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فإنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا -حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ- شَرَّ ما قَالَ لأحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ} إلى قَوْلِهِ: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 96].

قَالَ كَعْبٌ: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ عن أمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، وأَرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَنَا حتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذلكَ قَالَ اللَّهُ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة: 118]، وليسَ الذي ذَكَرَ اللَّهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ؛ إنَّما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا، وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إلَيْهِ فَقَبِلَ منه..

الراوي: كعب بن مالك | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: 4418 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

بأفضل حال، أريدك أن تكون أنت من الخالدين {أَن تَكونا مَلَكَينِ أَو تَكونا مِنَ الخالِدينَ}[الأعراف: 20].

وقاسمهما فدخل له من مدخل العاطفة، مثل الآية: {إِنَّكُم كُنتُم تَأتونَنا عَنِ اليَمينِ}[الصافات: 28] من معانيها –ولها معانٍ كثيرة– منها من يُظهِر الإحسان ويُظهِر المعاني الجيدة، فلا يدخل بطريقة صدامية، فهذه من أكثر الأشياء التي تجعل الإنسان يُفتَن.

إذًا بدأت الآيات أولًا بالفتنة التي تأتي في صورة شفقة، التي تأتي في صورة العاطفة، كيف يكون التعامل معها؟ يكون بأن تشكر له ذلك سواء الأب أو الأم أو الصديق، هو فعلًا ينصحك فتشكر له ذلك، لكن تقول له أن الصحيح هو كذا وكذا فتحترمه لأنه ربما يكون جاهلًا.

وأنا لا أتكلم على من يريد أن يُوقعك في الفتنة، الصديق الذي يريد أن يُوقعك في الفتنة هو من سيأتي ذِكره لاحقًا ويقول: {اتَّبِعوا سَبيلَنا وَلنَحمِل خَطاياكُم}، لكن هناك مَن يكون فعلا عنده عاطفة، الأب أو الأم أو الأخ أو الصديق، عنده عاطفة وجاء يكلمك لأجلك، لكن كلامه خاطئ، فهذا تَحذر منه، تحترم جهده وتنصحه في الله وتقول له جزاك الله خيرًا، لكن هناك حق لله وهو أولى {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حسنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ} أمر منتهي.

وهناك قضايا تحتاج نوعًا من المفاصلة، فلا تظل تقنعه وترد عليه؛ لذلك يروى أن سيدنا سعد قال لها "والله لو أن لكِ مائة نفس خرجت نفسًا تلو أخرى والله ما تركت الدين"، أي تريدين أن تأكلي أو لا تريدين أن تأكلي أنتِ حرة أنا الموضوع بالنسبة لي منتهي!

نرجع إلى البرِّ لكي ننتهي من هذه النقطة، لأن أحيانًا عندما يشعر مَن أمامك، أنك ممكن أن تقبل من ناحية معينة فيضغط عليها، لكن أنت عندما تغلق –فهناك باب بالنسبة لك يكون مغلق قطعًا–، نحن غرضنا من أول مجالس القرآن، قلنا: الإسقاطات التربوية في حياتنا فأنا هدفي أننا نأخذ الآيات ونعيش بها في الواقع.

دائمًا يجب أن يكون لك في حياتك ثوابت تبينها للذي أمامك ويفهم أنها ثوابت، هناك واحد مثلًا لا أحد يجرأ أن يقول له وهو ذاهب ليصلي اترك الصلاة وتعال إليَّ، والذين حوله كلهم عائلته وأقاربه يفهمون أن هذا ثابت عنده من كثرة ما تكرر الأمر وهو حريص عليه، الذين حوله يفهمون أن هذا بالنسبة له عمود لا يتحرك، ويوجد شيء آخر في الدين يفهمون أنه عندما يُضغَط عليه هو نفسه يتكاسل فلا بأس، ممكن نضغط على هذا.. شيء في العلم، شيء في الدعوة أي شيء آخر في الدين..، الذين حولك يفهمون فممكن يضغطون على هذه لكن لن يضغطوا على تلك، **فأنت يجب أن يكون عندك ثوابت في الدين.**

وكما ذكرنا قبل ذلك أن يكون عندك أعمدة أسمنت الذين حولك وأنت نفسك من كثرة ما روضتها لا تقول لك: لا، المسألة فيها خلاف، يوجد واحد مستحيل نفسه تقول له: أشرك بالله أو افعل الزنا، من كثرة ما نفسه جربت وفطمها عن هذا، لكن ممكن تقول له: انظر نظرة حرام، فلماذا إذن يا نفسي؟ فكلما نفسه تقول له كذا، هو يقطع عليها هذا.

في حين كلما تكون مترددًا النفس تلح عليك، النفس أصلًا تميل للراحة تميل للسكون، تصوم.. لماذا تصوم اليوم؟ افطر، تريد أن تصلي قيام، لماذا تصلي قيام؟ نجعلها غدًا، فالنفس تعرف؛ لذلك الشيطان –في حديث كنا شرحناه من قبل في خُطبة– (يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث عقد إذا هو نام

عليك ليل طويل فارقد)[14] إذًا هذا المدخل الناعم هو الذي يُوقِع الإنسان، فيجب أن يكون عند الإنسان ثوابت {فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} نفس الكلام الذي شرحناه قبل ذلك، هذا لفظ عام ممكن السياق هنا يُخصصه {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} **ما المقصود هنا بالصالحات؟**

الصبر على الأذى النفسي الذي يتعرض له من أمه أومن والديه، ويصبر ويصابر ويستمر على الإيمان بالرغم من الضغط، هذا الثبات ممكن يجعله يخسر، يخسر أهله، يخسر الناس، فالله عوضه –كما ذكر ابن عاشور– {لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} الله يعوضه.

لذلك دائمًا عندما تأتي لتراجع مسألة الاعتزال في القرآن {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} فالله هنا يعوضهم {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ} {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}[الكهف: 16] لما سيدنا إبراهيم قال هذا، الله رزقه بالذرية {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}[مريم: 49]؛ فدائمًا الذي يفاصل ويعتزل لأجل الله سبحانه وتعالى، الله يعوضه خيرًا فهنا ربنا قال: {لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.

فالفتنة الأولى، التي تأتي من أقرب الناس إليك وتأتي في صورة عاطفة، هذه صعبة، هذه تجعل الإنسان يسقط، وهنا عندما تأتي ترجع لأسباب نزول الآية يوجد أكثر من قول، أشهرهم قولين:

---

[14] يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذَا هو نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلَّا أصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ..

الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: 1142 | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]** | التخريج: أخرجه البخاري (1142)، ومسلم (776)

- القول الأول: أنها نزلت في سعد بن أي وقاص وهذا نجا وأفلح.
- القول الثاني: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة.

قصة سيدنا عياش بن أبي ربيعة قصة طويلة، وأنا أريد أن أقول لكم أن **الثلاث فتن:**

- الفتنة الخاصة بالوالدين.
- وفتنة الإيذاء {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}.
- وفتنة {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}.

الثلاث فتن هذه ممكن ينطبقوا على سيدنا عياش، فهو مر بالثلاثة، سيدنا عياش بن أبي ربيعة مِن الذين هاجروا مع سيدنا عمر بن الخطاب، هل تتخيل؟ قوي في الحق هاجر وذهب إلى المدينة، أي أنه مر من أكبر أزمة، وهذا يبين أن الإنسان لا يأمن على نفسه، لا أحد يظن في نفسه فيقول: "أنا وصلت"، لا يوجد كلمة "وصلت" إلى أن تموت.

الأثر المشهور الذي يروى عن أحمد بن حنبل وهو في لحظات الموت قال له الشيطان: "فُتَنِي يا أحمد"، قال: "ليس بعد"! فيجب أن تظل عندك نفسية المجاهدة لآخر لحظة، سيدنا عياش بعدما هاجر جاء له أبو جهل ورجل آخر من إخوته لأمه، فقالوا له: أمك تبكي وأمك تريد رؤيتك، هي تريد الاطمئنان عليك فقط، وليس لها غرض غير هذا، ودخلوا له من مدخل العاطفة، سيدنا عمر قال له: هؤلاء يخدعونك، نصحه سيدنا عمر فرفض النصيحة –كل جزء من هذه القصة له وقفات وأنت أسقِط هذا الكلام على نفسك–.

فسيدنا عمر قال له: فإذا أنت أبيت خذ ناقتي، ولا يوجد أي ناقة تستطيع أن تسبقها، إذا حدث أي شيء وشعرت بخيانة ارجع بسرعة والناقة تعلم الطريق، أخذ الناقة بالفعل وذهب معهم وهم يعرفون –أبو جهل والذين معه– أن هذه الناقة سريعة، لذلك خدعوه وقاموا بخدعة معينة قال له أبو جهل: ناقتي

تعبت فممكن أن آتي ليركب معه الناقة، فبمجرد انخفاض الناقة لكي ينزل هجم عليه أبو جهل والذين معه وربطوه وجلده كل واحد مئة جلدة وانهارت قواه وبدأ يشعر بالضعف وذهب فوجد أمه تبكي.

والبكاء مع الأذى هنا سيدنا عياش تعرض للثلاث فتن: الأذى، وأصدقاؤه يكلموه، وأمه تبكي، هذه المنظومة كلها جعلته يرتد! لم يعطهم كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان -كما سنشرح {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ}-، يوجد فرق بين أنه أعطاهم كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وبين أنه ارتد تمامًا.

هو ارتدَّ أي أنه ألقى الجمرة، ترك الموضوع، وجلس فترة طويلة إلى أن نزلت آيات معينة {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}[الزمر: 53] كتبها عمر بن الخطاب إلى عياش فقرأها ولم يفهمها، فصعد على سفح جبل: اللهم فهِّمنيها؛ أُلقي في قلبه أن مازالت عنده فرصة للتوبة، كانوا يعتقدون أن الذي يرتد ليس له توبة، ففهم أن له فرصة وأمل للتوبة، فهاجر بعد ذلك وحَسُن إسلامه.

فبعض المفسرين قال {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حسنًا} **تناسب النموذجين**: نموذج الذي تعرض لهذه الفتنة ونجح والذي هو سيدنا سعد بن أبي وقاص ونموذج الذي تعرض لهذه الفتنة وفُتِن وهو سيدنا عياش.

❖ الفتنة الثانية:

وبعد ذلك الفتنة الثانية {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ* وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} هذه الفتنة الثانية.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} ونحن قلنا دائمًا القرآن يوضح أن الكلام سهل، فمن أول السورة {أَلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} لا، هذا القول يجب أن يكون له تبعات.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} ما معنى هذا الكلام؟ هو قال أولًا: آمنا بالله، هل قالها نفاقًا أم قالها صدقًا؟ أي أول مرة قال آمنا بالله هل قالها وهو مؤمن؟ لكن لم يتوقع تبعات كلمة الإيمان؟ فلما تعرض للأذى ترك الإيمان، أم هو من البداية قالها نفاقًا؟

- هناك قولان، تعالوا نتتبع كل قول منهما:

- **القول الأول**: من قال –وهؤلاء قلة– أنه من البداية قالها نفاقًا، فلما قال: آمنت بالله –نفاقًا– وتعرض للأذى أي طولب للخروج في الجهاد، وعلى هذا فالآية هنا مدنية؛ يعني عندما هاجر المسلمين للمدينة والإسلام أصبح قوة، هو وجد الناس كلها تدخل في الدين فقام وقال من ستكون له الغلبة؟ هو دائمًا يسأل عن الذي سيغلب يشجع الغالب؟ قالوا له: المسلمون، قال: إذًا أنا ماذا؟ أنا مسلم.

بعدها قالوا له: نحن سنذهب لنجاهد، قال لهم ما هذا؟ لا أنا مسلم بسبب الغنائم والمناصب، أنا لا أقول مسلم لأجاهد، هل صدقتم أم ماذا؟ {فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} فترك.

يرجع المسلمون ينتصروا مرة ثانية {وَلَئِن جاءَ نَصرٌ مِن رَبِّكَ} فيقول أنا معكم ألم أقل لكم أنا مسلم؟ {إِنّا كُنّا مَعَكُم} فهو يتقلب، فربنا يقول له: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أنت ممكن ظاهرك يتغير ولا يعلم الناس حقيقة أمرك لكن الله مطلع على ما في الصدور.

وهذا الذي يصدق عليه قول الله تعالى {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ}[البقرة: 20] –من إحدى معاني هذه الآيات في سورة البقرة– أن الإسلام عندما ينتصر ناس كثيرة تمشي فيه {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} أي إذا مر الإسلام بوضع هزيمة أو استضعاف {قامُوا} يتوقف عن السير.

هناك أُناس لا ينصرون الدين ولا يعملون ولا يؤمنون إلا في أوقات التمكين، أي أنه عنده استعداد يكون مسلمًا وعنده استعداد يعمل للدين لكن بشرط واحد: أن يكون في أوقات التمكين؛ لكن البذل والتضحية في وقت فيه تعب وفيه أذى { لا تَنفِروا فِي الحَرِّ }[التوبة: 81]، –لذلك ذكرت قبل ذلك في مجالس قديمة في سورة التوبة– أن المنافقين يقولون: نحن عندنا استعداد نجاهد لكن بثلاث شروط:

* لوكان عرضًا قريبًا.

* وسفرًا قاصدًا.

* ولا تنفروا في الحر.

–من آيات مختلفة– أي أنه يقول أنا عندي استعداد أجاهد لكن بشرط أن يكون الطريق مكيف ويكون هناك غنيمة ويكون مكان قريب، فأنا معكم في هذا الوقت، غير ذلك لن أجاهد، يوجد هكذا أُناس، يقول أنا عندي استعداد أعمل للدين لكن بشروط معينة، هو لا يريد كُلفة لا يريد مشقة فهذا معنى الآية على قول أن هو من الأول أظهر الإيمان نفاقًا.

– **القول الثاني**: وهناك من قال: لا، أنه قال {آمنا} صادقًا، {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا} قالها مصدقًا، انتهينا في القول الأول من الذي قالها نفاقًا من البداية، سنرى الذي كان مؤمنًا، ما الذي حدث له؟

حدث له شيء من اثنين: أثر مروي عن عكرمة عن بن عباس –ذكره الطبري وصححه كثير من أهل العلم أو حسنه كثير من أهل العلم– أثر عجيب جدًا أثر طويل، سيفيدك في فهم أسباب نزول أكثر من آية في القرآن، وتفهم أن هناك حياة كاملة لناس كان اسمهم المستضعفين في مكة.

المستضعفون في مكة قبل وبعد الهجرة هؤلاء عالم آخر، لذلك هناك دراسات جميلة قُدمَت جمعت كل الآثار عن المستضعفين في مكة لأنهم كانوا طوائفًا، ليسوا جميعًا حالة واحدة.

- **حرص المسلمين وحرص الكافرين:**

أثر ابن عباس يقول، وعلى المعنى الذي سأذكره أيضًا الآية مدنية لكن نزلت في المستضعفين في مكة الذين رفضوا الهجرة، أُناس مسلمة في مكة رفضوا بكامل إرادتهم وليسوا مجبرين، رفضوا الهجرة، أي كان عندهم مصالح مادية منعتهم من الهجرة، فحين ذهاب المسلمين للهجرة لم يوافقوا على الهجرة معهم وقالوا: لا، نحن سنجلس في مكة لن نهاجر.

انتبهوا معي: هناك أُناس ظلوا في مكة وهم مستضعفون، ظلوا في مكة لم يستطيعوا الهجرة لكن الله قال { لا يَستَطيعونَ حيلَةً}[النساء: 98] هؤلاء عذرَهم الله، لكن كان هناك أناس كان ممكن أن يهاجروا لكن منعهم من الهجرة حب أموالهم وديارهم وأهليهم، هؤلاء فيهم آيات كثيرة في القرآن منها:

عندما هاجر المسلمين وحدثت غزوة بدر، المشركون أجبروا المسلمين الذين لم يهاجروا أنهم يخرجوا معهم! تخيل واحد مسلم يصلي في مكة وبعد الهجرة، لكنه اتفق مع الناس الذين في مكة ألا تؤذوني ولا أؤذيكم، يقوم بالشعائر ويخالط المجتمع الشركي –وكانت الهجرة واجبة عليه– فعندما حدثت غزوة بدر:

–المشركون قالوا: لا، نحن شركاء في الوطن ستأتي للجهاد معي.

-قالوا: لا هؤلاء مسلمون وأنا مسلم فكيف سأجاهد ضد مسلمين؟

-قالوا: لا التقسيمة اليوم ليس مسلمين ومشركين؛ نحن مكة تحارب المدينة أنت ستأتي معنا إجبارًا.

فالمشركون أجبروهم أنه يخرج معه في الجهاد في بدر، فتخيل أن المسلمين يخرجون في بدر يتفاجأ أنه يجد مسلمًا أمامه في جيش المشركين، فعندما رجعوا المسلمون اختلفوا قالوا: هؤلاء الناس مسلمون أم مشركون؟ هم مسلمون لكن في جيش المشركين، والمسلمون الذين خرجوا في جيش المشركين ورجعوا لم يشعروا بالأزمة بل قالوا نحن اضُطرِرنَا أن نخرج، ماذا سنفعل؟ فنزل قول الله سبحانه وتعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ ظالِمي أَنفُسِهِم}[النساء: 97] الآيات في سورة النساء أن هؤلاء الذين توفوا مصيرهم أنهم يدخلون النار -التفصيل ذكره بن كثير- والشاهد هنا أن الباقي منهم مفتون.

فكتب لهم المسلمون الذين في المدينة الآيات، انظر لحرص المسلمين، فانظر إلى هذا الأثر الطويل يبين مدى حرص المسلمين على بعضهم البعض، وحرص المشركين على فتنة المسلمين، قام المسلمون بكتابة الآيات بسرعة وأرسلوها للمسلمين الذين في مكة، فقرأها المسلمون الذين في مكة الذي تبقوا من غزوة بدر، فماذا قالوا؟

هذا يعني أننا في فتنة! الناس التي ماتت ماتوا ظالمي أنفسهم والملائكة تقول لهم: { قالوا فيمَ كُنتُم قالوا كُنّا مُستَضعَفينَ فِي الأَرضِ قالوا أَلَم تَكُن أَرضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِروا فيها}[النساء: 97] إذًا نحن لا يجوز أن نمكث في مكة.

الآية واضحة لا يصح المكث في مكة، هَمَّ المسلمون بعد غزوة بدر، الذين كانوا يعيشون في مكة أن يهاجروا؛ فعندما هَمّوا بالهجرة لحقهم المشركون، قالوا: لن تهاجروا أنتم ستجلسون معنا، منعوهم وقاتلوهم في الطريق وفتنوهم وعذبوهم فلما تعرضوا للأذى والتعذيب ارتدّوا!

فنزل قول الله سبحانه وتعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}، فلما نزلت الآية فيهم قام المسلمون أيضًا بكتابتها وأرسلوها للمسلمين في مكة يقولون لهم: ليس لكم عذر في المقام في مكة حتى بعد التعذيب بل بقاؤكم وارتدادكم عن الدين بعد التعذيب وأن تشرح بالكفر صدرًا هذه فتنة.

فلما جاءت لهم -المسلمون في مكة- هذه الآية يئسوا من كل خير قالوا هكذا انتهى أمرنا، ليس لنا محاولة أخرى، نحن أول مرة خرجنا ونزلت { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظالِمِي أَنفُسِهِم} ثاني مرة: أتينا لنحاول أن نهاجر فُتنا وأوذينا وارتدينا فنزل قول الله سبحانه وتعالى -في سورة العنكبوت- {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}، فظلوا فترة حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها لَغَفورٌ رَحيمٌ}[النحل: 110]، وكان أول الآية: { لِلَّذينَ هاجَروا مِن بَعدِ ما فُتِنوا} أي أنهم هاجروا من بعد ماذا؟ من بعد ما فُتنوا {جاهَدوا وَصَبَروا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها لَغَفورٌ رَحيمٌ}[النحل: 110].

قال لهم أن الحل الوحيد أنك تهاجر بعد الفتنة وتجاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم وتصبر لكي يغفر لك هذه، فكتبها المسلمون بسرعة -هناك أمل- وكتبوها للذين في مكة وقرأوها فعرفوا بوجود أمل فاجتمعوا معًا للهجرة فتبعهم أيضًا المشركون، ما الضير أن تتركوهم؟! فتبعوهم فقاتلوهم فنجا من نجا وقُتل من قُتل.

أثر رائع يُبين لك كيف كان هناك صراع دائم على المجموعة المسلمة الموجودة في مكة التي رفضت الهجرة من البداية؟ كان ممكن أن تهاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم لكن رفضت ذلك.

فإذًا هناك قول –نرجع للآية– {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} هؤلاء الذين حاولوا أن يهاجروا فتعرضوا لأذى وتعذيب فارتدوا وليسوا من أعطوهم كلمة الكفر وقلبهم مطمئن بالإيمان.

فالآثار المروية عن سيدنا عمار وغيره عندما كان يتعرض لأذى شديد فيعطيهم كلمة الكفر لكن قلبه مطمئن بالإيمان هذه الآية ليست فيه، لكن في آية النحل {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}[النحل: 106] توضح أنه على الإيمان وأن ما تكلم به من الكفر اضطرارًا مُكرَهًا، هذا لا يؤثر على دينه.

وهناك خلاف بين أهل العلم هل الأولى الصبر –وهذا الذي رجحه كثير مثل: الإمام مالك وغيره– أم أنه يعطيهم كلمة الكفر حتى لا يتعرض للهلاك؟ بل بوب البخاري بابًا للإكراه وجاء عند حديث.. قال ((باب من اختار القتل والهوان والعذاب على الكفر)) هذا عنوان الباب، ووضع فيه حديث (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) وجاء في آخره: (أن يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يلقى في النار)[15] فقال بما أنه يكره الكفر كما يكره أن يُلقَى في النار فهذا دلالة على أن المفروض على الإنسان حتى لو سيُلقَى في النار لا يتكلم بكلمة الكفر وإن كانت له رخصة.

والخلاف طويل بين أهل العلم في هذه المسألة –الذي يريد الاستزادة يرجع لشرح ابن حجر في هذا الباب– الشاهد الذي أريد قوله: أن الآية ليست فيمن أعطاهم ما يريدون بلسانه لكن قلبه مطمئن بالإيمان بل الذي ارتدَّ.

[15] ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ..

الراوي: أنس بن مالك | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: 16 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه البخاري (16)، ومسلم (43)

لذلك من المعاني في هذه الآية {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} قالها صادقًا {فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} لما يتأذى يعطيهم كلمة الكفر تقيةً ثم يَستمرئ الوضع! أي بعدما يقول ويعطيهم كلمة الكفر فيعطوه النعيم فيجد أن كلمة الكفر تعطي نوعًا من ألوان النعيم!

- إذًا {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} نحن قلنا أن معنى الآية:

- قالها منافقًا وهذا تكلمنا عنه.
- أو قالها مؤمنًا ثم تعرض لأذى فارتد.
- وقالها مؤمنًا ثم تعرض لأذى فأعطاهم بلسانه وحفظ بقلبه فترة ثم انهار داخليًا؟

وهذه التفسيرات الثلاثة السابقة على أن الآية نزلت بعد الهجرة-

- أو هناك معنى ذكره ابن عاشور -وقال إنه مروي عن الضحاك وجابر بن زيد- قال: لا، هذه الآيات نزلت قبل الهجرة.

إذًا كيف نزلت الآيات قبل الهجرة؟ هناك ناس آمنت بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكة والنبي مازال في مكة وبعد ذلك تعرضوا لأذى شديد فارتدوا عن الدين بقلوبهم لكن كانوا يخافون من الذهاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقولون لهم إنهم مرتدون فاتفقوا مع المشركين -وهنا هذا الذي يبرر كيف ظهر النفاق في مكة- فكانوا يذهبون للمشركين يقولون لهم: إذن نحن معكم لكن حرجًا لا نستطيع أن نخبر المسلمين أننا ارتدينا فكانوا يذهبون للمسلمين في مكة يُظهِرون الإسلام ويذهبون للمشركين يُظهِروا الكفر حتى لا ينالهم الأذى، بل إن ابن عاشور فكر وحاول يحلل هذا وقال: كان ممكن أن هذا يحدث باتفاق مع المشركين لكي يأتوا بأخبار المسلمين.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} إذًا الاحتمالات في معنى " آمَنَّا بِاللَّهِ " إما أنه قالها نفاقًا أوقالها صادقًا، ولو قالها صادقًا فإما أنه قالها بعد الهجرة ولم يوافق بالهجرة فتعرض للأذى ففُتن.

أو أنه قالها قبل الهجرة فتكون الآية نزلت قبل الهجرة نزلت في مكة فتعرض لأذى من المشركين في مكة فارتد داخليًا وأظهر الإسلام أمام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة –وهذا كان اختيار ابن عاشور وهذا كان قول غريب بعض الشيء ولكن ابن عاشور حاول أنه يكمل على أن الآيات مكية وأن الآية نزلت قبل الهجرة وأن المشركين كان ممكن أن يستفيدوا من هذا الوضع.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ} و{إذا} هنا: للتحقق أي أن هذا وارد أنه يحدث، {في الله} هنا: أي بسبب تمسكه بدين الله سبحانه وتعالى أي أنه سيأتي وقت لن تُؤذَى إلا بسبب الإيمان.

وهناك معنى ثاني –نسيت أن أقوله هنا– البقاعي أشار لمعنى جميل جدًا ماذا قال؟ قال: { فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ } أيًا كان الأذى، يعني يوجد شخص يخلق الأعذار لكي يترك –من المعاني التي ممكن تصلح معنى للآية– {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ} أذىً غير مُضرٍ وغير مُهلِكٍ ويستطيع أن يتحمله بالرغم من أنه يستطيع أن يتحمل لكنه يترك.

وهنا ممكن هذه الآية تفيدنا في فهم المسألة التي تُسمى –كإشكال– تُسمَى مشكلة الشر، التي تجعل الناس ممكن ترتد أو تكفر بسبب الأذى ، أنه يتعرض لأذى بدني أو نفسي أو لأحداث ضخمة وابتلاءات لا يفهمها فتجعله يرتدَّ؛ فالآية هنا ممكن تصلح نموذج للذي يُلحِد نتيجة مشكلة الشر.

وهذه مشكلة لشخص لا يفهم المقدمات التي ذُكِرَت في سورة العنكبوت ولا يفهم أصلًا؛ لذلك المفروض أن الشخص الذي يعتقد العقيدة الإسلامية ليس عنده إشكاليات خاصة بمشكلة الشر، ممكن تكون عند النصرانية ممكن تكون عند غير المؤمن بوجود ربنا لكن الذي يفهم الغاية من وجوده والابتلاء والدار الآخرة وأن الدنيا دار بلاء وأن الآخرة دار جزاء، الذي يفهم مقدمات معينة لا يكون عنده هذا الإشكال، ممكن تكون المشكلة أنه لا يستطيع التحمل، لكن ليس عنده مشكلة في الفهم، لا يتهم ربنا سبحانه وتعالى.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} **ما معنى** { جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }؟

هذه المساواة هي مساواة خاطئة منطقًا وعقلًا، عذاب الله دائم -أعوذ بالله من ذلك- وعذاب الناس منقطع عذاب الله أليم شديد؛ لأنه هو الخالق، وفتنة الناس عذاب المخلوق من مخلوق ضعيف، فالذي يساوي بين الاثنين مخطئ، **فما معنى** { جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }؟

- **بعض المفسرين**، قال: تعامل مع الأذى الذي يتعرض له من المشركين بطريقة كما يتعامل المؤمنون مع الخوف من عذاب الله! أي أن المؤمن يخاف من عذاب الله فيجتهد في الطاعات، الخوف مثل الحب -كما تكلمنا في شرح { مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ } الحب شعور دافع للعمل كذلك الخوف شعور يدفع للعمل- فما الذي يجعل الإنسان يتعرض لشهوة تكون أمامه وسهل الحصول عليها ويتركها؟ أنه خائف، هناك ناس تترك أعمالًا كثيرة للدين خوفًا، فبدأ يتعامل أنه ترك الدين كليةً بسبب الخوف، والآية ابتداءً -مرة أخرى- تتكلم فيمن ارتدَّ.

- **الإمام الطبري** قال: {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} أي ارتدَّ عن الدين مطلقًا تمامًا ولم يعطهم كلمة الكفر بلسانه –وهذه فيها رخصة كما ذكرنا– لكن هذه لا تصلح للاستئناس، فالإنسان يُثبِّت نفسه ويُثبِّت غيره أن تحمل لأجل الله، أن اجعل معاملة ربنا مختلفة عن معاملة الناس؛ لذلك يقولون في النار: –والعياذ بالله– {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العالَمِينَ}[الشعراء: 97-98] هنا {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} وأيضًا ما معنى { جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }؟

هذا الجعل ترتب عليه أعمالًا، اعتقاده أن فتنة الناس مثل عذاب ربنا جعله يتعامل كما يتعامل المسلمون خوفًا من العذاب، هو يتعامل إنه خائف أن يعمل أي شيء للدين، عنده هزيمة نفسية خائف يفكر في أي شيء للدين مطلقًا فترك الدين كليةً.

شعور الخوف شعور مرعب لذلك لما أظن كان الإمام الرازي يتكلم { الَّذي أَطعَمَهُم مِن جوعٍ وَآمَنَهُم مِن خَوفٍ}[قريش: 4] والأمن والإطعام ذُكرا كثيرًا في القرآن فكان يتكلم أيهما أولى: أن الإنسان يُحصِّل أمنه أولًا أم يُحصِّل الطعام؟

فكان يذكر أن الأمن أحبَّ للإنسان من الطعام، وقال إذا أتينا بخروف شاة ووُضِع أمامها طعام لكن تخاف أن تقترب منه فقد تموت جوعًا ولا تقترب من الطعام، الخوف شعور مُهلِك، فالخوف لو سيطر على الإنسان ممكن يجعله فعلًا لا يقوم بأي عمل من أعمال الدين، يكون عنده فوبيا خائف خوفًا مطلقًا.

{فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ} لو المقصد هنا: الذين قالوا آمنا قبل الهجرة ف {نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ} يكون هنا المقصود به الهجرة أو فتح مكة للمستضعفين الذين لم

يرضوا بالهجرة، {وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ} هذه الكلمة لا يعلم حقيقتها إلا الله، لا يوجد شيء يمر على الله؛ لذلك الله قال: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أنت ممكن تكسب في الكلام {هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[النساء: 109].

أحيانًا يكون الواحد أُوتِيَ جدلًا، لذلك سيدنا كعب قال هكذا: لقد أُوتيتُ جدلًا -عندما ذهب يعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم- قال أنا ممكن كنت أتكلم للنبي صلى الله عليه وسلم بكلام يعذرني لكن الله يعلم الحقيقة، فالمهم أنك تعامل ربنا {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}.

نكتفي بهذا القدر، المرة القادمة إن شاء الله نُكمل الأذى الثالث.

- قلنا الأذى الأول: { وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ } أو **الفتنة الأولى**.
- **والفتنة الثانية:** { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ}.
- **الفتنة الثالثة:** التي تأتي في صورة النصيحة وشبهة؛

فالأولى: تأتي في صورة شفقة، **الثانية:** تأتي في صورة أذى، **الثالثة:** تأتي في صورة نصيحة لكن في شبهة أنهم يقولوا لهم {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} نتكلم عنها المرة القادمة، نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيرًا.